الباطنية في الفكر الإسلامي وجهة سياسية إخوان الصفا انموذجاً

ESOTERICISM IN ISLAMIC THOUGHT AS A POLITICAL PERSPECTIVE - BROTHERS OF AL SAFA - AS MODEL

د. حسين عباس حسين
الجامعة المستنصرية/ كلية العلوم السياسية

المستخلص

دأبت الحركات الباطنية في الإسلام على الحراك الفكري المفعم بالطرح المغاير للأنماط السائدة، وهو ما شكل نوعاً من الطرح المختلف، إذ كانت الفلسفة والانشغالات العقلية في توصيف وادراك الموجودات وتعريف المفاهيم هي الصفة الغالبة في ما ينظرون له، وعلى وفق هذا المعطى لم تخلُ الساحة الإسلامية التي وُجدت بها الحركات الباطنية من التعاطي السياسي، فكان حضورهم يتضمن الرؤى والطروحات السياسية التي أسهمت بإثارة الأقوال والأفعال تجاههم على مستوى الفكر والسياسة. فشكلوا جدلية حاضرة أينما حضروا في نقاش رؤاهم على مستوى الند والتحليل والرد، إذ لم تخلُ آراؤهم من تصدير فهمهم للسلطة وأهلية الحاكم وصفاته. ومن هنا كان لا بد من انتقاء انموذج للقياس، فكان إخوان الصفا مثالاً لما اتصفت به هذه الجماعة من شمولية الطرح وتفصيلاته, كما ورد فيما ينسب لهم من رسائل مليئة بالجوانب المتعلقة بالسياسة وتنظيرهم إزاءها.

Abstract

The esoteric movements in Islam have been perpetuating the intellectual movement, which is filled with a different proposition of the prevailing patterns, which constituted a kind of different discourse, as philosophy and mental concerns in describing and understanding the foundations and the definition of concepts were the dominant characteristic of what they viewed, and according to this data the Islamic scene in which they were found was not empty The inner movements of political engagement, as their presence included the political visions and propositions that contributed to stirring words and deeds towards them at the level of thought and politics, they formed a present dialectic wherever they attended in the discussion of their visions at the level of peer analysis, and response, as their opinions were not free from exporting their understanding of authority and the qualities of the ruler and his attributes, and from Here, it was necessary to choose a model for measurement, so they were the brothers of Al-Safa, an example of what characterized this group from the comprehensiveness of the offering and its details, as mentioned in the letters attributed to them, which are full of aspects related to politics and their theorization towards them.

المقدمة

تتلازم الحركات الباطنية في الحقب الإسلامية المتعاقبة بجدلية واسعة, فمنهم من عدّ هذه الحركات طارئة على منهج الفكر الإسلامي، الذي يقوم على الاستنباط السائد من الأدلة والنصوص الشرعية. إلا أن البعض الآخر يرى في الاتجاهات الفكرية الباطنية أنها انطلقت على وفق محددات المعاني الخفية للنصوص الشرعية، وأصبحت تفسيرات هذه الاتجاهات متعلقة بتصورات مبتدعيها وفلسفتهم في رؤيتهم للأشياء والوجودات، كالإسماعيلية والقرامطة والبصرية والدروز والتعليمية والسبعية والخرمية، ومنهم إخوان الصفا، في نمذجة لما جاء من مضامين البحث. وهذه الحركات كانت سرية الطابع، تأسست على منهج فلسفي وتأويل خاص بما تعتقد بجنبة كلامية طاغية على متبناياتهم. والحركات الباطنية في الإسلام اختلف في تصنيفها الباحثون تاريخياً الى أي اتجاه فكري تنتمي، فمنهم من قرن توجهاتها الفكرية بالمدارس الصوفية، ومنهم من يعزو أفكارهم إلى المتوارث من الأديان السابقة من سفسطة وزندقة توالت على جميع الأديان. إلا أن النقاش الفكري والعقائدي، وإن كان حاضراً عند أغلب من ناقش فكر الباطنية, بقي العامل السياسي هو الأكثر فاعلية في تصدير صورتهم الى الباحث في خباياهم, فالنقاش على السلطة إسلامياً ألقى بنفسه على تصنيفهم، ورمي بعض هذه الحركات الباطنية بالانحراف, لأن السلطة إسلامياً عملت في كثير من مراحلها على تكفير وردِة من خرج عليها، بعيداً عن تشريح ظاهرة الانتماء الفلسفي أو المضمون الكلامي أو مدى مبررات التأويل من عدمه لديهم. فيُنظر مثلاً تاريخياً وباستفاضة إلى مصدرية فكر الإسماعيلية كاتجاه فكري ينتمي الى الحركات الباطنية، هو بالنهاية احد أوجه الانشطار الفكري للمذهب الشيعي، وبغض الطرف عن نفي أو اثبات التلازم العقدي بين الاتجاهين الفكريين، نلمس الظلال السياسية على هذا الطرح بوصم الشيعة بتبعات الانحراف المروج له في الفكر الإسماعيلي, أو ارتهان الإسماعلية للنسق الشيعي المعروف بالخروج على السلطة في الأحقاب الإسلامية المختلفة. فيجد الباحث أن (السياسة ومشروعية السلطة) حاضرة من جهة الحاكم بتبرير ديمومته في السلطة ورفضه لكل المخالفين, وكذلك الحركات الباطنية زاخرة بمقولاتها التي تتلخلص "بلا ولاية لمن خرج عن جادة الدين", ومن جهة أخرى رؤية الباطنية لطبيعة السلطة ومشروعيتها التي سيتناولها البحث، فيعدّ توجه هذه الحركات الباطنية في طرح آرائهم وتبيان هويتهم، خليط فيما يمكن ان نسميه الاقتباسات المتنوعة من مجموع الفلسفة وعلم الكلام والمنهج التأويلي في تفكيك التصورات بهذه الأبعاد بحد طاغٍ على طرحهم وما يتبنون، وجعلهم يشكلون بناءً قدسياً وروحياً يرتكز على الدين في الاستلهام ومحورية التعايش الإنساني في السلوك والتطبيق.

ربما يكون معقداً تفكيك الرؤية القريبة من واقعية قراءة أفكار هذه الحركات وصدور هذه الآراء منهم، بجنبتها الفكرية العقدية والسياسية، لكن لا يخفى أن منظومة الفكر السياسي الإسلامي تأسست على المفهوم منها من أدلة تشريعية منصوص عليها

(القرآن والسنة), وهي نفسها النظرية التي يراد منها الشيوع والانتشار والتطبيق، وبالتالي هي الأفكار المُؤمَن بها سلفاً، وهي نفسها التي تمارس وتشغل حيزاً من التطبيق، وما ينتج من رؤى وتصورات سياسية لا يخرج عن هذه القاعدة. نعم، ان الاتجاهات الباطنية في الفكر الإسلامي قد لا تتعاطى بوضوح مع الظواهر، لكنها بالنتيجة أفكار لا يراد لها التقوقع والتحجر والانكفاء، فهي بالنتيجة ايديولوجية تستتبع الجذب لها وتوسيع رقعتها، فكانت **أهمية** البحث تتمحور في أن الحركات الباطنية في الإسلام ذات دور فاعل, وإنْ كان سرياً وغير معلن، إلا أنها مارست نوعاً من السلوك الفكري الذي يتسم بخاصية التنظيمات السياسية السرية، التي أشغلت الواقع السياسي والسلطوي, ومن هنا **يفترض** البحث بأن هذه الحركات لعبت دوراً في المعارضة السياسية، تأرجح بين دور ظاهر محسوس وبين النمط الفكري الذي بُني على أساس التصورات والتنظير، لما يجب أن تكون عليه السلطة.

المحور الأوّل
الحركات الباطنية.. النشأة والهوية الفكرية:

تتّسم هذه الحركات منذ نشأتها بإحاطة الغموض حولها، فقد كانت مثار اهتمام الباحثين، وكذلك محوراً للابهام الذي يكتنف الخائض في مدار نشأة هذه الحركات وأفكارها. فكانت السرية في نشأتها واجتماعها ووجودها هي الحاضرة والظاهرة منها، فبرغم التصنيف في ماهية أفكارهم ما بين الفلسفة المجردة والرؤية الدينية المؤطرة بالتنظير الفلسفي, إلا أن العامل والشغل الذي يقترب من البعد السياسي بقي حاضراً في أروقة الجماعات والحركات والمذاهب والاتجاهات في حقب الإسلام المتباينة، "لم تستطع الفلسفة ولا الدين أن يقفا بعيداً عن السياسة في هذا الثلاثي (الدين، السياسة، الفلسفة)، فظل الدين – الذي عرّف نفسه بأنه سياسة – محباً للسياسة على اعتبار أنَّها أفضل الوسائل التي يمكن عن طريقها تحقيق المثل الاجتماعية العليا به هو. وبالطريقة نفسها أصبح واضحاً أن الفلسفة ستشعر بالاحتياج إلى السياسة سواء أكان ذلك لضمان استمرار وجودها على اعتبار أنَّها الدرع الواقي الذي يمكنه تحقيق ذلك، أم باعتبارها الرشد الذي ينقل الإنسان إلى الحمل وجو السعادة"[1], ولاستعراض ماهية الباطنية [2] ونشأتها كنمط فكري اتُّبع من بعض الحركات المثبنية له، يمكن أن يكون هذا النمط من الفكر والتوجه أشبه ما يكون بالدخيل المنبثق من وحي مجموع الأفكار والرؤى التي تبنتها مجمل حركات الفكر الإسلامي المتقدمة. إلا أنَّها بالوقت نفسه جوبهت بكل أنواع الرفض ووُصفت بأقذع الصفات. إن تناول الحركات الباطنية المتواترة في منظومة الفكر والتفكير الإسلامي يشكل جدلية بين طرفي النقيض، بين الإيمان الميتافيزيقي المطّرد وبين الإيمان بثوابته الغيبية المعروفة بتعاقبية الأديان. فنجد الإيمان الغيبي وحدوده لا يمكن ان يكون سقفاً معلوماً للباطنية، بقدر ما يذهبون هم إلى حدود ابعد في التفسير والتأويل لمعالم الغيب ومفاهيمه ومدركاته، في قياس يوصل الباحثون به هذه التيارات إلى حد فاصل بين الإيمان والكفر، وبين الجادة والزندقة. وعلى وفق هذا المجال الفكري، كان تحديد ظهور المذاهب الباطنية ذا وجه عقلاني، لأنَّهُ يبرَّر بما يتميز به من خصائص تجعله مدار نقاش في منشأ الفكر والعقائد التي بناها للآخرين. لذلك، حين البحث في الجماعات الباطنية فإننا نقف عند تعريفات لهذه الجماعات، عكستها تغيرات ورؤى هذه الجماعات نفسها، فيما يخص الحقائق والاتجاهات التي يذهبون لها في تفسيرهم وتأويلهم، لكل ما يحيط بهم، ويتعلق بعائدية النص الديني الذي يشكل عاملاً مبرراً لآرائهم. «فالباطنية لقب عام مشترك تندرج تحته مذاهب وطوائف عديدة، الصفة المشتركة بينها هي تأويل

(١) زرين قورت اوغلو، الافق السياسي للفكر الإسلامي دراسة في علاقة الدين بالفلسفة ، ترجمة وليد عبد الله القط، ط١، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٨٨.

(٢) الباطنية: لقبت بها بعض الجماعات لدعواهم ان ظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنَّها بصورها توهم عند الجهال الاغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والاذكياء رموز واشارات إلى حقائق معينة، ينظر ابو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، شركة ابناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، ص ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

النص الظاهري بالمعنى الباطن تأويلاً يذهب مذاهب شتى، وقد يصل التباين بينها حد التناقض الخالص، فهو يعني أن النصوص الدينية المقدسة رموز وإشارات إلى حقائق خفية وأسرار مكتوبة. وإن الطقوس والشعائر، بل والأحكام العملية هي الأخرى رموز وأسرار، وإن عامة الناس هم الذين يقنعون بالظواهر والقشور، ولا ينفذون إلى المعاني الخفية المستورة التي هي من شأن اهل العلم الحق، علم الباطن»[٣]. ويعزو البعض ظهور أوَّل دعوة للباطنية في أيام المأمون من حمدان بن قرمط، وعبد الله بن ميمون القداح[٤]، وهذه الجماعات منهم من يجذّر للموروث الباطني وهو عبارة عن حالة عرفتها الأديان وتعاقبت عبر الأحقاب. وهنا يمكن ان نميّز الباطنية بإطارها العام إلى مصدرين في الفكر الإسلامي: أولهما: الباطنية التي توارثتها وعرفتها الأديان والحضارات المختلفة «ترك هذه أثره في مفكري تلك الحركات الباطنية التي ظهرت بعد ذلك، كما جعلهم يبحثون عن حضور هذه الأفكار الاصلي، فوجدوا ضالتهم في الفلسفة اليونانية بما فيها الأفلاطونية الحديثة، وكانت النزعة الباطنية التي تميزت به هذه الفلسفات دافعاً قوياً لأخذ المزيد من أفكارهم»[٥]، ثانيهما: الباطنية المتجذرة والمتبنية إسلامياً، وهي قسمان:

- الاتجاه التطبيقي والسلوكي: وهو ما عُرف بالصوفية، وذلك لان التصوف يدور حول نقطتين:[٦]

أ- إن العكوف على العبادة يولد في النفس "فوائد" هي الحقائق الروحية، وقد أنكر الحشوية[٧] ذلك.

(٣) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلامين المعتزلة الاشاعرة، الإسماعيلية، القرامطة، النصيرية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧، ص ٧٥١.

(٤) ينظر إلى الباطنية على أنها ليست فرقة من الإسلام، بل هي من فرق المجوس، حيث ينسب ظهورها أيام محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان، وهم خلاف الكرامية المجسمة، ينظر عبد القاهر بن ظاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفِرق، تحقيق عبد الحميد، الناشر محمد على صبيح واولاده، بصفة pdf تاريخ انشاء الملفات ١٤ اغسطس ٢٠٠٥، ص ٢٢.

www.noor.book.com. 2019/10/23

(٥) انبثقت الفلسفة الأفلاطونية والتي تقوم على خصائص معينة اهمها: الدقة في التفكير والغموض في المعاني، والتعبير عن الحقائق بالرموز والاشارات له أهمية رئيسية في تاريخ الباطنية في العالم الإسلامي , إذ كان جل أعتماد رجالها في أفكارهم الباطية على فيلسوفها المعروف «أفلوطين» , والتي تتلخص أرائه فيما يلي : أولاً : الله في رأي أفلوطين كائن مطلق بسيط لا يدركه الوصف لأنه فوق الأدراك , ثانياً : الفيض والعالم : وقف أفلوطين أمام مشكلة هي (خلق العالم , وراى أن القول بعدم العالم على ما قال أرسطو يقود الى الكفر , وأن القول بخلق العالم حسب ما وردت به الرويات الدينية مناقض للفلسفة , فآراد أن يلفق مذهباً لا يثير به رجال الدين ولا يخالف الفلسفة في الظاهر فتبنى راي أفلاطون في الفيض بعد أن خرج من نطاق الفلسفة الى نطاق الدين , ثالثاً : النفس الكلية (التي صدرت عن العقل الأول الصادر عن الله مباشرة) تملأ العالم وتبعث في نشاطه , وتظر النفس الكلية في كل كائن حي , أما نسبة النفس الكلية للنفوس الجزئية (نفوس البشر والنبات والحيوان) فقد ضرب عليها أفلوطين الأمثال فقال مثلاً (أن النفس الكلية كنور الشمس المشرق على غرف متعددة , ففي كل غرفة جزء من نور الشمس نفسه , ولكن ليس نور الشمس كله . للمزيد ينظر محمد أحمد الخطيب , الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدهم وحكم الإسلام فيها , ط١ , مكتبة الأقصى , عمان الأردن , ١٩٨٦ , ص ٣٦ , ٣٧ , ٣٨ .

(٦) ماسينون ومصطفى عبد الرازق، التصوف، ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون، ط١، دار الكتب اللبنانية مكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٥- ٣٦.

(٧) الحشوية، الذين هم حشو الناس وفضلتهم وجاهلهم ويطلق أيضاً على رواة الاحاديث من غير تمييز لصحيحها من سقمها، وكذلك يطلق على المجسمة، وكذلك يطلق على ضعيفي النظر والتمييز، والقائلون بجواز ان يخاطبنا الله بالمهمل او ما لا معنى له، وهو اللقب الذي اطلقه الحسن البصري على جماعة كانوا يجلسون في حلقة فوجد كلامهم رديئاً، فقال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أي جانبها، فسموا الحشوية من اجل ذلك، ينظر: احمد قوشتي عبد الرحيم، الاتجاهات الحشوية=

ب- إن علم القلوب يفيض على النفس (معرفة)، تنطوي على استعداد الارادة لتلقي هذه الفوائد. وقد أنكر المعتزلة ذلك, وقنعوا بمعرفة النفس معرفة نظرية.

- الاتجاه النظري الفلسفي أو التأويلي: وهو ما عُرف به الباطنيون بأنهم حرّروا فهمهم من قيد النص, ويقسم هذا التأويل إلى التأويل بمعنى التفسير، وهو أحد معنيي التأويل عند السلف سواء أوافق تفسير الكلام وبيان معناه ظاهره أم خالفه، "التأويل بمعنى تحصيل المؤول أو حصوله، أي بالمدار نفسه بالكلام، وهو المعنى الثاني في لفظ السلف، فإن الكلام إن كان طلباً، كان تأويله الفعل المطلوب نفسه، وإن كان خبراً، كان تأويله الشيء نفسه المخبر به. التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره، وهو المعنى الذي شاع وتبادر للذهن أوَّل الامر في المؤلفات، ففصل المفسر في مثل قوله (يخرج الحي من الميت) إن أراد به اخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد اخراج المؤمن من الكافر، أو العالم من الجاهل كان تأويلاً" [٨]. فالتأويل هو السمة التي امتازت بها تلك الحركات أو الاتجاهات الفكرية الباطنية، ولذلك كان كل ما هو خاضع لهذه القاعدة من التأويل الباطني يوصف بالانحراف والضلالة من قبل المحيطين, وهذا ما دأب عليه أغلب المؤلفين في كتب التاريخ. فالتأويل مبرر لدى الباطنيين لأنهُ يرتكز على الشواهد والقرائن التي يدعون ومنها الميتافيزيقيا، التي تسلط الأثر الروحي والنفسي على ملامح ذلك الفكر الباطني. كما ينظر إلى التأويل ليس نتاجاً ما ورائياً خالصاً جاء من وحي الفراغ وشرعنة الآراء ومداليلها، بل هي عملية من التلازم بين البينة والفرد لانتاج تلك المقولات التي تتبنى "ان التأويل حركة بالشيء او الظاهرة، اما في اتجاه الأصل بالرجوع أو في إيجاد غاية أو العاقبة بالرعاية والسياسة، لكن هذه الحركة ليست حركة مادية، بل هي حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر" [٩]. لذا، لم ترد التأويلات فقط من وحي النصوص والإشارة الواضحة إلى جملة من التأويلات في نص القرآن الكريم بقصة موسى (عليه السلام) مع معلمه. وكثيرة هي الشواهد الواردة في القرآن الكريم الدالة على ابعاد وأنواع التأويل[١٠]، وقد امتازت الباطنية بأن رؤيتهم تمحورت حول ثابتة لديهم وهي ان

=في الفكر الإسلامي عرض ونقد، بحث منشور في مجلة مركز البحوث والدراسات الإسلامية، السنة السابعة العدد ٢٥، ص ٦٩١-٦٩٢-٦٩٣.

https://ddlae//boo;/reaf/2019/10/139836.3

(٨) للمزيد ينظر , حمد بوديان، الإسلام والتأويل في النصوص الدينية المقدسة وأسس القبول والرد، دراسة مقارنة بين الإسلام والمسيحية، ج٤، جامعة ايتونو، كلية الالهيات، ملاطيا، ٢٠١٧، ص ١١٣-١١٤.

(٩) للمزيد ينظر , نصر حامد ابو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠١٤، ص ٢٣٠.

(١٠) ن معنى التأويل هنا الكشف عن الدلالة الخفية للأفعال وهذه الدلالة الخفية الباطنة لا تتكشف إلا من خلال افق غير عادي وهو «العلم اللدني» الذي اوتيه العبد الصالح، ولا شك ان اعتراض موسى عليه السلام على هذه الأفعال لم يكن اعتراضاً ناشئاً عن الجهل بدلالتها جهلاً مطبقاً , فالجهل المطبق من شأنه مع التسليم بعلم الآخر ان يؤدي إلى الصمت وانتظار التأويل، للمزيد من صور التأويل القرآني المتنوعة , ينظر: نصر حامد ابو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المصدر السابق ،ص ٢٢٦- ٢٢٧-٢٢٨.

لكل ظاهر باطن, وهذا بحد ذاته جعل من واقع التأويل مرتكز في طروحاتهم ولعدة دواعي:[١١]

١. التحرر من قيد النص المقدس، ابتغاء التوفيق بينه وبين الرأي الذي يذهب اليه صاحب التأويل.
٢. التحرر من قيد النص المقدس، ابتغاء التوفيق بينه وبين ما يفهم من صريح اللفظ وبين ما يقتضيه العقل.
٣. الرغبة في تعميق صريح النص المقدس الساذج، ابتغاء مزيد من العمق في الآراء التي يحتويها. ومن هذه الدواعي يتبيّن أن ما يُلجئ إلى التأويل، هو الاضطرار إلى الأخذ بنص يعدّ مقدساً، أو مقيداً، ولولا هذا لما كان ثمة أي داع إلى التأويل.

وفي حالة التشخيص للحركات الباطنية وهويتها في منظومة البيئة الفكرية الإسلامية نجد ان هذه الحركات امتازت بنمطين من الطرح الفكري لتبيان هويتها، الأوَّل: اتسم بالغموض الذي لم يشِح للآخرين عن كل ما يجول بعقائد ومتبنيات الحركات الباطنية. والثاني: هو النمط الذي اقتصر على مريدي هذه الحركات، مما ميّزها بميزة الاتباع العقائدي والروحي.

(١١) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، مصدر سابق، ص ٧٥٤.

المحور الثاني
الحركات الباطنية جدلية الفكر والسياسة:

لا يخلو تحقيب الفكر الإسلامي من شواهد عديدة وحاضرة، وتشي بأن الفكر الذي كانت تتمتع به جماعة يكون غير مقبول من الجهة الأُخرى، على مستوى المذاهب أو الاتجاهات الفكرية المتعددة. وهذا ما أعطى لهذا النوع من السلوك والتعاطي طابعاً سياسياً، لأن هذه الحركات كانت موصومة بالانحراف والابتعاد عن جادة الصواب في نظر المناوئين لها، وهذا يتضح من خلال توجهات واتجاهات وتنوع رؤى هذه الحركات، فهي تصنف حسب الفكرة التي اعتُقدت وتم تبنيها. وكذلك جاءت تلك الشخصية من وحي هذا الاعتقاد والفكر الذي اتسم به كل اتجاه فكري، وعلى النحو الآتي:(١٢)

١. الباطنية: نسبة إلى التأويل بالباطن.
٢. القرامطة: نسبة إلى حمدان بن قرمطً احد الدعاة الباحثين الذي ظهروا في أيام المأمون، وعاونه فيما ذهب اليه عبد الله بن ميمون القداح.
٣. الخرمية: نسبة إلى حامل مذهبهم ورئيسه، وهو تحصيل اللذة، فإن (خُرّم) لفظة فارسية تدل على الشيء المستلذ، وقد كان لقباً لـ(للمزدكية) وهم اهل الاباحة من المجوس.
٤. البابكية: نسبة إلى بابك الخرمي الذي خرج من بعض الجبال بناحية اذربيجان في أيام المعتصم بالله ٢١٨ هـ، فوجه اليه المعتصم جيشاً قضى على حركته ٢٢٢هـ.
٥. الإسماعيلية: نسبة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق سابع الائمة (ع)، والإسماعيلية ساقوا الإمامة إلى جعفر (ع)، وزعموا ان الإمام بعده ابنه إسماعيل، وقد افترقوا إلى فرقتين:

أ- فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر، مع اتفاق اصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة ابيه.

ب- الفرقة الثانية تقول: كان الإمام بعد جعفر سبطه لمحمد بن إسماعيل بن جعفر، حيث ان جعفر نصّب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة ابيه، عُلم انه انما نصب ابنه للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل. والى هذا القول مالت الإسماعيلية من الباطنية.

٦. السبعية: ولقبوا بذلك لأمرين: الأوَّل اعتقادهم بأن أدوار الإمامة سبعة، والثاني قولهم: ان تدابير العالم السفلي منوطة بالكواكب السبعة.
٧. المحمرة: لقبوا بذلك لأنَّهم صبغوا ثيابهم بالحمرة أيام بابك وكان ذلك

(١٢) للمزيد ينظر, أبو حامد الغزالي , فضائح الباطنية، تقديم عبد الرحمن بدوي، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية ، الكويت، ص١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧.

شعارهم.

٨. التعليمية: لُقبوا بذلك لان مذهبهم يقوم على إبطال الرأي وتصرف العقل، وعلى دعوة الخلق إلى تلقي العلم من الإمام المعصوم، وعلى انه لا مدرك للعلوم الا التعلم إمام معصوم.

وتلازم الجدل مع هذه الفرق والحركات والاتجاهات الفكرية في الإسلام حول تحديد هويتها في انتمائها إلى الإسلام وتعاليمه، ومدى قربها من الأصول والشريعة التي جاء بها الإسلام. ومنهم من يرى ان هذه الفرق خرجت عن ربقة الإسلام وتعاليمه، وبرغم ان البعض يرى ان هذه الفرق قد جهدت للانفتاح الفكري "يمكننا ان نقول ونحن واثقون بأن الفلسفة الباطنية مهدت السبيل لنشر الأفكار الحرة في العالم الإسلامي، وشجعت الناس على المجاهرة بها بعد أن كانوا يخافون من البحث بها، وان لتلامذة هذه المدارس الفضل على النتاج الفكري الإسلامي بما أوجدوا من فتوحات فكرية عظيمة، حيث نفذوا إلى صميم واقع فلسفة كونية عالمية خالدة، فتركوا للاجيال اعظم ما يخلفه العقل الإنساني من انتاج وابداع، بالرغم من ان المدارس وجدت في عصر مضطرب صاخب بالثورات والحركات التي نتجت عن النقمة على الحكام والامراء والخلفاء"[١٣] فالحركات الباطنية التي انقسمت إلى هذه الفرق هي تجليات لما بات يعرف اليوم بـ"الإيديولوجية" التي تميزهم عن غيرهم من الفرق والأنماط الفكرية المتعددة، ومن هنا كان لهذه الحركات الاثر الواقعي والمفروض على منظومة الفكر الإسلامي عموماً. ولا بد من الإشارة إلى انه مثلما وقعت بعض الاتجاهات الباطنية بالانحراف والزندقة، كذلك كانت لهذه الاتجاهات الأثر الجلي في تبيان جوانب الباطنية المطلوبة للبناء والكمال الروحي. فيشار مثلاً إلى الإمام جعفر الصادق (ع)، ولا بد للباحث في شؤون الحركات الباطنية في الإسلام من التحدث عن الإمام جعفر الصادق (ع)[١٤]، ومن هنا يمكن ان نستمد ان الباحث تنازعه مدرستان لتشخيص الفكر الباطني بالإسلام، ينقسم بين الواصف لهم بالانحراف والزندقة، ومن يصفهم بأن لهم شأناً فكرياً معيناً للإستنتاج والوصول إلى المبتغيات. وللنظر في المضامين الفكرية والسياسية للحركات الباطنية يمكن ان تصنف إلى محورين في اتجاهها:

الأوَّل: الوصم بالانحراف الفكري والزندقة

لا بد من بحث هذا التوجه إزاء الباطنية هل هو فكري المصدرية ام سياسي الدواعي، وما شكل فهماً فكرياً للباحثين والمؤلفين في شأن الباطنية، وشكّل محوراً لوصمهم بالانحراف، وهذا ما نسب لهم من خواص وعلى النحو الآتي:[١٥]

١. التغطرس والخداع: ومعنى هذه الخاصية، او القاعدة في النهج الباطني، ان يكون الداعي للباطنية، ذكياً فطناً، متفرساً، على درجة عالية من القدرة على الخداع، ولا بد له أن يميز بين من يطمع به ويوثق بنيته.

٢. حيلة التأنيس: التلون في الممارسة وتعديل أساليب الدعوة الباطنية.

(١٣) ينظر, مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، ط١، دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ٥٣.
(١٤) للمزيد ينظر , مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، مصدر السابق، ص ٥٠.
(١٥) للمزيد ينظر بتصرف, صابر طعيمة، دراسات في الفرق الشيعة، والنصرية والباطنية، الصوفية، الخوارج، ط١، مكتبة المعارف، الرياض، ص٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤.

٣. التشكيك: وهي مرحلة لاحقة لمرحلة التأنيس أي مرحلة تغير عقيدته.
٤. حيلة التعليق: أي تعليق عضوية العضو تمهيداً لربطه بالجماعات الباطنية.
٥. حيلة الربط: وهي اخذ العهود والمواثيق من العضو.
٦. حيلة التدليس: وفيها يكون العضو أكثر من مجهز لتقبل الأفكار والمعطيات التي تقدم له.
٧. حيلة التأسيس: يكون العضو قد أوشك على أن يكون باطنياً، فتتوضح أمامه جملة من القضايا التي لا تُنكر في الظاهر.
٨. الخلع: تجنيد العناصر التي يستهدفونها ولا تجيء الا بعد مرحلة التأسيس.
٩. مرحلة الانسلاخ: وتأتي بعد المراحل الباطنية جميعاً.

ولأن ما اتصفت به الحركات الباطنية، وما شكل انطباعاً عاماً للمؤرخين والباحثين لا يخرج عن اطار كون هذه الحركات اشبه ما تكون بالتنظيمات السرية، قد رمت بظلالها على مذاهب معتدّ بها تُعمل العقل والاصول الدينية، من سنة ونصوص، كالشيعة الإمامية التي امتازت بطرحها الكلامي والعقدي, وهو ما جعل الشبهة من جهة والاستعداء المستمر للحكام من جهة أُخرى عاملاً مؤثراً في وصفهم بالانحراف. وفي عموم المذاهب والاتجاهات الفكرية إسلامياً، كان مبدأ الثيوقراطية هو السائد في المعطى العام الذي انعكس في ممارساتها وطروحاتها، فالكل ينظر في نفسه خاصية الهداية وينسب الانحراف إلى غيره اذا جاء من دون حجة ودليل ومنهج فكري. فكان ما بين الاتجاهين التباين في تشخيص هذه الحركات الباطنية في أنَّها قد انحرفت عن جادة الطريق القويم، أو أنَّها ثابتة على تعاليم استُمدت من مبادئ الإسلام من السنة والقرآن، وهذا ما شكل نوعاً من كون المشخص لانحراف هذه الجماعات او المعتقد بصوابيتهم قد جاء ايضاً من وحي ما اعتقده المشخص أو المؤلف أو المؤرخ نفسه، وما تأثر به من قربه الفكري أو ابتعاده عن هذه الجماعات. نعم، ربما لا يختلف أي صاحب دراية بثوابت الدين الإسلامي في بعض انحرافات هذه الحركات أو جملة منها في منهجهم وتشخيصهم وآرائهم لكثير من المعاني والمرادفات والقصدية للثوابت، إلا ان أي متابع ايضاً لا يجد من الصعوبة تشخيص الكثير من التهم والتشويه لبعض المذاهب والطوائف، التي تمثلت جملة من عقائدها بما تتضمنه الباطنية. وهنا تعمُّد التلبيس عليها واتهامها شتى التهم، لان المصدرية الحقيقية وراء ذلك هي الاستحواذية على تصدير الفهم الصوابي لديهم، مما عرفوه عن الشريعة للآخرين, وادعائهم بأن هذه الصوابية هي الحق الوحيد، وماعَداهم فهو عِداهم، وجاء على هذا السلطة (الخلافة) وإدارة شؤون الرعية الأُخرى، وهذا ما اقترن بحال أو بآخر ببعده السياسي في أروقة الفكر الإسلامي "نحن ندرس الحركات الباطنية في الإسلام من الناحية العقائدية والاجتماعية والسياسية على ضوء الواقع والحقيقة، أنَّها كانت تهدف في مراحلها وادوارها كافة عبر التاريخ إلى خلق مجتمع مثالي على وفق مبادئ إنسانية تهدف إلى إسعاد الفرد، وبناء صروح المجتمع الإسلامي الاشتراكي السليم، على أسس من العدالة المنبثقة من تعاليم القرآن وارشادات النبي العظيم (ص) واحفاده الائمة الاطهار

(ع)"[١٦]. ومن هنا تعددت الرؤى والتشخيصات للحركات الباطنية، وحسب كل مدرسة واتجاه في ما ينظر لطبيعة واقع تلك الحركات وحتى في وقتنا المعاصر.

الثاني: الوجهة السياسية لأفكارهم

لا يمكن التعاطي إزاء الحركات الباطنية من اغلب الاتجاهات المناقضة لها على أساس الضد الفكري والرأي المعاكس، وفي ضوء المقولات الخاضعة لمنهج الفقه والعقائد فحسب, بل كان التوجه في عمومه أنَّهم جماعة يستنبطون الغايات السياسية أيضاً في مجمل أفكارهم، وهذه الرؤية جاءت لأنَّهم يرون أن الباطنية بمختلف توجهاتها هي عبارة عن حالة خارجة عن ربقة الإسلام، وتهدف إلى الاطاحة بالخلافة والاستحواذ على السلطة، فكانت معالجة أفكارهم على وفق هذه الرؤية التي بقيت عالقة في الاذهان. ومنذ أن نشأت هذه الحركات دأب المؤلفون على هذا الطرح وتبنيه "ومن البديهي أن يكون لاتباع الحركة الباطنية أهدافاً مرسومة، وغايات بعيدة من وراء زرع هذه الأفكار في العالم الإسلامي، من أهمها إزالة الخوف والقداسة عن العقائد الإسلامية ومناقشتها ووضعها تحت مجهر العقل والحس، من قبل اصحاب النفوس المريضة في الإسلام.. ولم يقف الاثر الفكري للحركة الباطنية عند هذا الحد، بل أوجد له أثراً واضحاً على الصوفية والصوفيين وبأفكارهم وعقائدهم الفلسفية. ويبدو أن عملية المطاردة لاتباع الفرق الباطنية جعلت الكثير منهم يختفون في حلقات الصوفيين"[١٧]. والوصف الحقيقي لهذه الحركات في خضم الجدل الدائر حولها أنَّها هل تمكنت من إحالة العقيدة الدينية إلى حراك سياسي؟ وهل كانت لها من وحي هذه العقائد إيديولوجية بالمعنى السياسي المتعارف اليوم؟ نعم، لا يمكن انكار ذلك بالوقائع والدلائل التاريخية المشهودة، بل ينظر بعض الباحثين في العصر الحاضر إلى تمازج بين تلك الحركات وبعض الايديولوجيات العالمية الحاضرة والمعاصرة، بوصف هذه الحركات بأنها اجتماعية وتهدف إلى الاستقرار والعدالة. كما توصف الحركات الباطنية وصلتها بالحركات المنتقضة عبر الأحقاب الإسلامية المتعاقبة.[١٨]

١. إن الحركات المنتقضة التي قام بها المبرقع وصاحب الزنج كانت ثورات اجتماعية، قام بها الفلاحون والمعدمون ضد السلطة، ولكنها فشلت لعدم ارتكازها على ايديولوجية دينية.
٢. إن الإسماعيلية نسجوا عقائدهم المذهبية على العقل، واستفادوا من التراث الديني وما فيه من نزاعات عقلانية إنسانية.

١٦ () مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، مصدر سابق، ص ٨.
١٧ () محمد احمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص ٤٣٨.
١٨ () للمزيد ينظر : احمد عرفات القاضي، الفكر السياسي عند الباطنية وموقف الغزالي منه، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٦٠، ١٦١.

٣. إنهم رفعوا شعار العدالة الاجتماعية للجماهير الساخطة، وإن هؤلاء القرامطة لم يصل الينا من تراثهم شيء، وان كان ما يعوّل عليه في دراستهم مستمد من المصادر المعادية، سواء أكانت سنية أم شيعية، وإن هذه الآراء المعادية التي اتفقت على ادانة الباطنية لا تصلح لدراسة هذه الحركة.
٤. التواطؤ بين الكُتّاب والحاكمين من اجل الهبات والانعام المالي، ثم النظر إلى هذه الحركة على أنَّها حركة المستضعفين، كل هذه الحركات جعل الكُتّاب يتناقضون ويخلطون فيما كتبوه عن الباطنية مما يسقط مزاعمهم وقرائنهم.

فكان التلازم السياسي للحركات الباطنية لم يقتصر على ما يحملون من أفكار، بل كذلك ما وجّه من نقد واستعداء وتأليب لرأي الحاكم، مما جعل هذه الحركات مطاردة سياسياً، وإن أضمرت رؤاها السياسية في حينه. ومن هنا لم تقف الحركات الباطنية حول ذاتها، والتجمهر حول ما ترى من مفاهيم يتم تبنيها، وإن كانت بعنوانها الظاهري هي تتلامس مع المعنى، بوصفها باطنية الأفكار ولا تخرج عن هذا الاطار. "القانون عندهم تتركز دعائمه على أحكام الشريعة الإسلامية، ثم إنَّهم يبنون دولتهم الباطنية على هذه الأحكام، ومن أخلّ بها يعد خارجاً عن دولتهم. ذلك لأن العبرة في الاخلاص والطاعة والإيمان والتوبة بعد التوحيد، فالخروج على قانون دولة الباطن يعد خروجاً عن التشريع الالهي، وبالتالي عن قواعد الحكومة الباطنية، وعن تعاليمها وعن آدابها، بل يعدّ خروجاً عن الأخلاقيات التي لها المقام الأوَّل في نظام دولتهم"[١٩]. وفي ظل ما لديهم من أفكار تأرجحية بين ما يعتقدون من رؤى باطنية للمفاهيم والموجودات والسير الدينية، وبين ما ينظر لهم من انحراف الخارجين عن رؤاهم وعقائدهم, يبقى الواقع السياسي ملازماً لحركتهم ووجودهم وطبيعة التعاطي معهم، وهذه الحركات اتسمت بالواقع السياسي لعدة شواخص:

١. مثلما يوجد من يرى أن هذه الحركات اتسمت بالتكتم، يرى البعض الآخر أنَّها لم تتكتم، كونها جماعات تؤمن بعقائد مخفية لا تعطى إلا لمن يجدون لديه استعداداً لفهمها بتصورهم. اذن، هم ببعد من الابعاد معلنون لباطنيتهم على مستوى سرية الفكرة، ولكنهم منفتحون بأسرارهم من جهة أُخرى. وهذا ما عجل من الانخراط بمعنى من المعاني في الحياة العامة. ومن هنا، نستطيع أن نقول أن هذه الجماعة دخلت غمار السياسة بحراكها الملتحم مع المجتمع بترويج أفكارها.
٢. تلازمت صفة المعارضة السياسية مع هذه الحركات، وكانت طول وجودها وصيرورتها على خلاف مع السلطة، ومحاربة من قبلها. وهذا ما جعل الهجوم المبرّر أحياناً وغير المبرّر أحياناً أخرى بدافع وتبني من مختلف السلطات المتعاقبة إسلامياً.
٣. لم تفقد بوصلة الريادة والقيادة لمختلف توجهاتها واتجاهاتها كحركات باطنية متنوعة، وهذا ما اتفقت عليه على اية حال معظم الحركات الباطنية بمجمل

(١٩) للمزيد ينظر: حسن محمد الشرقاوي، الحكومة الباطنية، ط١، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٨.

أفكارها، من أن لها إماماً أو مربياً أو ولياً لهُ الأحقية في تيسير الامور وصيرورتها. وهذا ما جعل لهم واقعاً ورؤى للحياة السياسية يتصفون ويمتازون بها، وفقاً لصفاء ونقاء باطنه لا شخصه. وهذا ما جعل لهم رؤى اتجاه كل حاكم بناءً على هذه القواعد التي لا تتوفر بمعظمهم.[٢٠]

(٢٠) إن قواعد دولة الباطن تقوم أساساً على كونها إمرة, بمعنى قواعد لا يمكن الإخلال بها مهما كانت الظروف من دون اعتداد بالأشخاص التي تطبق عليهم، ومهما كانت درجاتهم ومقاماتهم أو مراتبهم في الولاية, لأن هذه القواعد إنما صادرة من التشريع الإلهي، ومن ثم لا يمكن مخافتها بدعوى ظاهرية, إذ أن الأساس فيها طهارة الباطن والاخلاص والطاعة لله، كونها لا تخالف الشريعة الظاهرة. ينظر: محمد حسن الشرقاوي , مصدر سابق , ص٧٠, ٧١.

المحور الثالث:
إخوان الصفا النشأة الباطنية والرؤى السياسية.

اسهمت هذه الجماعة بكونها من الأتجاهات الباطنية التي تميزت بعدة متبنيات جعلت منهم محلاً مهماً للبحث والأهتمام على مستوى الأتجاهات الباطنية المختلفة، وهي مرتبطة وتعد امتداد للحركات السالفة رغم ما تميزت به عن غيرها من فكرة وهوية اختصت بها على مستوى الطرح والحركة وخفاء شخوصها، "وقد تألفت بالعشرة، وتعانقت بالصداقة واجمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنَّهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنَّهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها او تطهيرها الا بالفلسفة وذلك لانها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الجهادية"[٢١]، وهذه الجماعة تميزت بمنحاها العميق في التفكير والعلوم والطرح والآراء المفعة بالفلسفة والحكمة والتبصر، وقد وصف احد رجالاتها سنة احدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة وهو "زيد بن رفاعة" بما يشي بهذه السمات "هنالك ذكاء غالب وقاد ويقظة حاضرة، سوانح متناصرة ومتسع في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات وتبصر الآراء والديانات وتصرف في كل فن اما بالشرير الموهم وإما بالتبصر المفهم واما التناهي المفحم")[٢٢] , وهذه الجماعة في عمومها قد تصنف إلى اربع مراتب:-[٢٣]

الاولى: اصحاب صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور ، وهي مرتبة ارباب ذوي الصنائع.

الثانية: اصحاب القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة بعد خمسة عشر سنة من مولد الجسد.

الثالثة: اصحاب مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الامر بالرفق واللطف والمداراة في اصلاحه.

الرابعة: وهم فوق هذه، وهي التي يدعو إليها إخواننا كلهم في أية مرتبة كانوا، وهي التسليم والقبول ومشاهدة الحق عياناً.

برغم أن ظهور هذه الجماعة في القرن الرابع للهجرة، وبرغم سرية هذه الجماعة، إلا أن التاريخ ينقل بعض أبرز شخوصها اللذين بنوا فكرها وبثوا هذا الفكر بين الناس. ومثلما كان الوجود والتأسيس في البصرة، إلا أن انتشارهم توسع في بغداد، وكان من أعلامهم "ابو سليمان محمد بن معشر السبتي، ويعرف بالمقدسي، وابو الحسن علي بن

(٢١) ينظر ,ابو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، تحقيق احمد امين واحمد الزين، الناشر، مؤسسة هنداوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧، ص ٢٢٧.

(٢٢) نفس المصدر، ص ٢٢٦.

(٢٣) للمزيد ينظر، رسائل اخوان الصفا، مج٤، مراجعة خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي سي أي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٧، ص ١٤٨-١٤٩.

هارون الزنجاني، وابو احمد المهرجاني، والصوفي، وغيرهم" .[٢٤]

وكانت هذه [الجمعية] تعد من اغلب الباحثين امتداداً للإسماعيلية، "ومن ثم عُدّت إخوان الصفا جماعة ثورية متمردة على السلطة السياسية في الدولة العباسية، رافضة للنظام السياسي بأكمله، وداعية لقيام مملكة يرفرف العدل على ربوعها وتحقق السعادة لأهلها"[٢٥]، فكانت لهم رؤاهم حول جملة من المدركات والمفاهيم العقائدية. إن الحقيقة التي سعى اليها إخوان الصفا هي سياسية، إلا أن البعض رفض أن تكون للإخوان هذه الغاية، تحت ذريعة أنَّهم ظهروا في زمن الدولة البويهية، وانقرضوا في ايامها التي كانت تعطف فيها على الشيعة، فهي ضمت لأول مرة في تاريخ الإسلام سيطرة العنصر الشيعي، والاخوان انطلقوا من صفوف الشيعة الإسماعيلية التي نشط تنظيمها السري منذ وفاة إمامهم إسماعيل بن جعفر الصادق"[٢٦]. فالفكر الذي كان يسعى إخوان الصفا لنشره وتفشيه في محيطهم لا يخلو من المسحة السياسية في بعد من ابعاده, وهذا ما ترسّخ لدى الكثير من المتابعين لهذه الجماعة. وبرغم ما كتب البعض من أن إخوان الصفا هم امتداد للإسماعيلية، إلا أن المميّزين لجملة عقائد وتصورات الاتجاهين يرون غير ذلك, "وذلك لأن إخوان الصفا قالوا بالفيض، إذْ هم يرون أن العقل فيض عن الباري وعلة بقاء العقل على إمداد الباري (عزّ وجل) له بالوجود، والفيض الذي فاض أولاً وعلة تمامية العقل هي قبول ذلك الفيض واستمداده من الباري (تعالى)، وعلة كمال العقل هي إفاضة ذلك الفيض والفضائل على النفس بما استفاده من الباري (عزّ وجل).. وكثيراً ما نلاحظ أن إخوان الصفا يسخرون من الإسماعيلية، ويسمونهم "المسبّعة"! فيقولون مثلاً (وقد توغلت السبعة في الكشف عن الأشياء السباعية فظهر لهم منها أشياء عجيبة"[٢٧]، وقد يستنتج من هذا ان إخوان الصفا لا يعدون انفسهم امتداداً للإسماعيلية فكراً وعقائداً، وهو ما تتبناه الفوارق العديدة بين الاتجاهين، بل يرى بعض الباحثين ان كلاً منهما لديه مذهب مستقل عن الآخر. وهذه الأفكار التي نُسبت لهم جاءت في رسائل سُمّيت برسائل إخوان الصفا، والتي جسّدت كل ما اعتقدوه وانتجوه من مخاضات أفكارهم. "إن زمان كفاية الرسائل تعود جذوره إلى ما قبل قيام الدولة الفاطمية، إذْ أرجع بعض الباحثين الرسائل إلى احمد بن عبد الله، ونسبها آخر إلى عبد الله بن محمد"[(٢٨)]. وكانت لإخوان الصفا النظرة والنظرية في كل مجالات الانتقال الفكري في خواص العدد والأنواع والنفس والهندسة والفلك والجغرافية والموسيقى والأخلاق وغيرها.

من المجالات التي زخرفت رسائلهم بها وبوصفها واتصافها والتنظير لها وفهمها، وهي مقولات المنطق ومعنى الأشياء "إن تقدم الأشياء بعضها على بعض من خمسة

(٢٤) ابو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق وشرح حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢، ص ٤٦-٤٧.
(٢٥) محمد عزيز نظمي سالم، الفكر السياسي والحكم في الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، د ت، ص ١٢٢.
(٢٦) للمزيد ينظر ,علي هادي ظاهر الموسوي، دراسة في فكر إخوان الصفا السياسي، بحث منشور في مجلة البصرة، السنة السابعة، العدد ١٢، السنة ٢٠١١، ص ٢٣٣.
https://www.iasj/iasj? Func= fulltex&ald= /57292.2019
(٢٧) ينظر, عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، مصدر سابق، ص٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠.
(٢٨) نقلًا عن , علي هادي ظاهر الموسوي، مصدر سابق، ص ٢٣٤. للمزيد ينظر أدريس عماد الدين القريشي، عيون الاخبار وفنون الاثار السبع الرابع، تحقيق مصطفى غالب، دار التراث الفاطمي، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٦٧- ٣٦٨. وينظر خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف ثامر، منشورات دار الانصاف للطباعة والنشر، سلمية سوريا، ١٩٥٦، ص ٧٢.

اوجه، احدها بالزمان والكون، كما يقال: إن موسى أقدم من عيسى, والآخر بالطبع كما يقال إن الحيوان أقدم من الإنسان، والثالث بالشرف كما يقال إن الشمس أقدم من القمر, والرابع بالمرتبة كما يقال إن العدد خمسة أقدم من الستة, والوجه الخامس بالذات كالعلة والمعلول"[٢٩]. إذْ أن إخوان الصفا كانت لهم رؤاهم كأي فكر إسلامي آخر في السياسة وفي واقع السلطة وهي رؤية شاملة، وإن كانت ذات ابعاد روحية، ولكنها نظّرت للحاكم ومؤهلاته وصفاته، وكذلك النظرة إلى طبيعة ومكونات الدولة ببعدها السابق لعصرهم، والحداثي التي هي عليها الآن (استطاع إخوان الصفا أن يقدموا تحليلاً فلسفياً لحلقة الاتصال بين النبوة والخلافة، كما قدّموا تبريراً منطقياً لضرورة اجتماع الإمامة والملك او الدين او النبوة والإمامة او السياسة والدين رأوا تقسيم السياسات الحكمة إلى ما يلي: [٣٠]

١. السياسة النبوية التي يقوم بها الانبياء.
٢. السياسة الملوكية وهي تهدف إلى حفظ الملة واحياء الشريعة واقامة الحدود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإخوان الصفا بعموم طروحاتهم كانوا ينشدون المعنى ويقولون بالتبني الروحي والاخاء العقلاني، منبثقاً ذلك كله من التعاليم العقلانية والفلسفة في عالم فاضل ومثالي، ومن هنا كانت واحدة من متبنيات هذه الجماعة هي ما اعتقدوه من مثالية المدينة الفاضلة والسعي الكمالي والروحي لها، وهذا ما جاء في معظم مقولات رسائلهم الاثنتين والخمسين، او الاثنتين والخمسين وواحدة كتبت في الأخلاق[٣١]، فقالوا فيها "ينبغي لنا أيها الأخ في اجتماعنا على الشرائط التي تقدمت من صفوة الاخوان أن نتعاون ونجمع قوة اخواننا ونجعلها قوة واحدة، ونرتب تدبير نفوسنا تدبيراً واحداً، ونبني مدينة فاضلة روحانية"[٣٢]. إن الطابع الرئيس للسياسة في فكر هذه الجماعة جاء متمثلًا في رسائلهم التي تحدد معالم إيديولوجيتهم، التي تعاطوا بها مع الواقع، وهذا ما جعل سمات سياسية واضحة لهذه الجماعة متمثلة بالآتي:[٣٣]

١. نشر أفكار الجماعة ومواقفها من القضايا العامة، وطرح الشعارات والقيم والعقائد التي تتفق مع أهداف الجماعة.
٢. التثقيف السياسي في إطار خط واحد للوقوف على جميع المسائل النظرية، حتى يمكن منع أي محاولة للخروج في اسس النظرية او تحريفها.

(٢٩) اخوان الصفا،رسائل إخوان الصفا وخلاف الوفاة،ج١، مكتب الاعلام الإسلامي، قم، جمادي الاولى،١٤٠٥، ص ٤١٢.

(٣٠) محمد عزيز نظمي سالم , مصدر سابق , ص١٢٣ .

(٣١) اختلف اخوان الصفا انفسهم في عدد رسائلهم، فيذكرون في فهرس رسائلهم ان عددها اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائب الاداب وحقائق المعاني، ويذكرون في موقع آخر أنَّها اثنتان وخمسون رسالة، ورسالة في تهذيب النفوس واصلاح الأخلاق، وفي موضع ثاني يتحدث الاخوان عن الأفكار الفلسفية التي اوجزوها في الرسائل في اثنين وخمسين رسالة، وفي مواضع أخرى من الرسائل يشير الاخوان إلى ان عددها احدى وخمسون رسالة , فقد ورد ذلك في رسالة اجناس العلوم وأنواعها، كما جاء في الرسالة العاشرة من الرسائل الناموسية الالهية ان عدد الرسائل احدى وخمسون رسالة، ينظر، اخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا, ج١، مصدر سابق، ص١١-١٢.

(٣٢) ينظر , مصطفى غالب، اخوان الصفا وخلان الوفا، ط١، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٩١.

(٣٣) محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا، تقديم عز الدين فودة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٩٦.

٣. حشد الحلفاء عن طريق نشر الرسائل لتوسيع جهة المواجهة، وتعميق الصلات مع مختلف طبقات الناس وكسب تعاطفهم مع الحركة على الاقل.
٤. نشر مساوئ النظام القائم والتحريض الجماعي الشامل ضده، حيث لا تحريض سياسي إيجابي، ولا عمل سياسي مثمر، من دون رسائل او جرائد تصدر بانتظام وتوزع توزيعاً شاملاً، وهو ما يسمى بالخيط السياسي.
٥. ربط جميع فروع التنظيم برباط عمل واحد وبفكر واحد، وهذا يؤدي بالتالي إلى تنمية القوى الذاتية وتحسين العمل التنظيمي وتدريب الاعضاء كفريق كامل للحركة، علاوة على اشتمال الرسائل والكتب السرية الأُخرى على العنصر المساعد في تهيئة اعضاء الجماعة والمتمثل في الجانب الأدبي، الذي يعبر عن وجهة نظر الجماعة وفلسفتها ونظريتها السياسية.

وكانت هذه الرسائل والتعاليم بمثابة المحور الاساس لحركتهم وتواصلهم، وهذه الأفكار كانت هي الديناميكية التي اوصلت وشائج إخوان الصفا ببعضها، والتمحور حولها، فباتوا بالمعايير المعاصرة أشبه ما يكونون بصورة حزب سياسي له ايديولوجيته ومبادئه وأهدافه التي يروم الوصول لها. وحتى في رؤيتهم للدين يؤكدون بصلة ما هو معنوي (ميتافيزيقي) بما هو محسوس، وقد جاءت هذه التعاليم من وحي نظرتهم في فلسفة الدين نفسه، ورد الناس في هذا يختلفون اختلافاً بيّناً، فعامة الناس لا يستطيعون ان يخلصوا لله فيَ علائق الحس، وكما ان النبات والحيوان دون نفوس العامة، فكذلك نفوس هؤلاء دون نفوس الفلاسفة والأنبياء، وهؤلاء في مصاف الملائكة المقربين"[٣٤]. وهذا ما ينسب لهم من العمل السياسي مبني على أساس ما هو معلن، وما هو مضمر من أهدافهم وغاياتهم، في ما يمكن ان يسجل في تاريخهم من أن لهم عدة مبتغيات من هذه الرؤى والحراك، وواحدة من أهمها هي رؤيتهم للسلفة وكيفية الخلاص من السلطان الظالم. "قد يكون لإخوان الصفا هدف سياسي يسعون اليه وغاية يرمون بها إلى الثورة على نظام الحكم، فإن فاتهم الاضطلاع بالثورة الظاهرة فلن بطولتهم هي بالتنديد بجور الحكام المستبدين، لعل ذلك التنديد يثير النفوس المستسلمة والخانعة"[٣٥]. وهذا ما جاء راسخاً وعميقاً في فكرهم، إذ لا ينفك الدين عن الملك في معتقدهم بأي حال من الاحوال, ويُعدان مثل توأمين لا يفترقان، ولا يمكن في الملك ان يكون خارجاً عن تعاليم وضوابط الدين. لذا، يرى بعض الباحثين أن إخوان الصفا يتسم حراكهم بالثورية إزاء هذا النمط من السلطة ويوصفون بالزعماء الثوريين، وسياسيين حقيقيين خُلقوا من مبادئ واسس التنظيم وهي:[٣٦]

١. له نظرية ثورية وبرنامج ثوري، شديد التمسك بالمبادئ والقيم، ولا تساوم في النظرية.
٢. يقوم التنظيم على اساس الوحدة والمركزية على مستوى البلاد بأسرها.

(٣٤) ينظر : ت.ج دي يور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص ١٤٤.
(٣٥) للمزيد ينظر: جبور عبد النور، اخوان الصفا، ط١، دار المعارف، بيروت، ١٩٠٤، ص ٨١ -٨٢.
(٣٦) للمزيد , محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا، مصدر سابق، ص١٨٤-١٨٥-١٨٦.

٣. تنظيم حديدي جيد.
٤. ذو قادة نوابغ مجربين ومتفقين في الرأي اروع اتفاق ومهيئين فنياً، يتحلون بملكة التقدير السياسي الصحيح، وملكة تعيين اللحظة الحاسمة بدقة متناهية.
٥. يمارس التحريض والتشهير السياسي الشامل، ويمارس كل نشاطاته وعمله التنظيمي من خلال خطط شاملة، مسترشداً بمبادئ راسخة، وينفذ بحزم ومواظبة واستقامة ونظام.
٦. له رسائل ونشرات تعمّم على فروع التنظيم كافة، تكون محرّضاً جماعياً وداعماً جماعياً ومنظماً جماعياً، وهي اشبه بالجريدة المركزية في التنظيمات السياسية والسرية المعاصرة.

وبرغم ما يشار إلى هذه الجماعة من كونها تحدثت عن نظريات علمية، من وحي فسلفتهم وعمقهم الفكري، وما عدّه البعض بأنهم نحو منحى التراث الاغريقي فلسفياً وبصورة معمقة، وأنَّهم اقرب في طرحهم إلى المعنى الباطني, إلا انه لا يختلف الكثيرون أنَّهم كانوا يتعاطون السياسة بنهج مميز واتسم بدقة الرؤى والتنظير المتعمن لكل مفاصل الواقع السياسي، الذي أحاطهم من رؤيتهم إلى ماهية الوجود صعوداً لربط نواحي الحياة المحسوسة كافي بالنظريات المعنوية التي كانوا يتبنون. ومن هنا جاءت السياسة عند إخوان الصفا بإطار مفعم بالفلسفة ودرايات الحكمة.

الخاتمة والاستنتاجات

لقد تناول البحث الحركات الباطنية من الجوانب الفكرية والفكرية السياسية. وبرغم أن هذه الحركات كانت منشغلة بواقعها الذي نشأت عليه من فكر مبني على أُسس معنوية (باطني)، إلا أنَّها اتسمت أيضاً بالترابط المحسوس مع محيطها، والتي تم استنتاجها من غمار البحث:

١. إن الحركات الباطنية تتابع طبيعي للحراك البشري على مستوى الدين والمجتمع، وهي لا تختلف عن كل المجتمعات الأُخرى التي اذا ما توفرت ظروفها الموضوعية فإنها تظهر للعلن، وهي كما تؤسس رؤاها على أسس باطنية فهي خاضعة من جهة أُخرى إلى كل الضوابط الاجتماعية والدينية والنواميس الأُخرى.
٢. إن الحركات الباطنية كان لها دور فاعل ومهم على مستوى الحراك الفكري والمعرفي في مختلف مناحي الوجود والحاجة الإنسانية، وهي أثرت الفكر والمعرفة، برغم من وصف بعضها بالانحراف, إلا أن هذا الفكر قد استفر الركود الفكري للآخرين في تنميط فكراً تجديدياً قادراً على المجارات الفكرية, وهذا الأمر لم تخلُ منه الرؤى والتنظيرات السياسية الباطنية.
٣. اتسمت الحركات الباطنية بأن لها نظريات مضمرة وأفراداً مستترة خلف عقائدهم, إلّا أن العمل لم يكن غائباً عن أدائهم وسلوكهم الظاهري، ولا سيما في واقع تعاطيهم وفهمهم للحاكم والسلطة.
٤. تمتعت هذه الحركات الباطنية بأن لها أطروحاتها المتكاملة الايديولوجية التي تهدف إلى ترسيخها اجتماعياً ودينياً. وهذا ما أعطاهم صفة الانفراد في مرجعيتهم بالتشريعات الدينية، لأن ربطهم لمختلف التصورات والمفاهيم ربطاً فلسفياً مبني على اطلاق العقل في تشكيل ملامح الفكر الذي يحملون.
٥. إن مجمل هذه الحركات الباطنية – وان كانت رؤاها عقائدية دينية فلسفية – إنَّما تجد بين طيّات أفكارها، فكانت تهدف الى الوصول إلى المدينة الفاضلة المثلى التي تتحقق بها الأهداف الدنيوية والأخروية في حدود ارتباط مفاهيمهم مع الدين والتحليل الفلسفي.
٦. تلازمت السرية مع هذه الحركات، وهذا ما أعطاها طابعاً واضحاً من أن لها سمة واضحة للمعارضة السياسية التي جعلت من هذه الحركات تعيش صراعاً حاسماً مع مختلف الحكام، وتكون هدفاً دائماً لهذه السلطات.
٧. إن الحركات الباطنية بوصفها الروحي والمعنوي والتشريعي جعل حيالها حركة نستطيع ان نصطلح عليها بالظاهرية، وهذا ما جعل وجوداً واضحاً للندّيّة على المستويات الفكرية والسياسية, وهو بحد ذاته عامل واضح على انغمار هذه الحركات بالواقع السياسي للمنظومة الإسلامية, وإن اختفت وراء التورية والتأويل والتقية، فهي بهذا المخاض كانت فاعلاً في تدافع الأفكار نحو احقية وتبريرية الاصلح فيما بين المنظومتين الفكريتين.